

الفصل الخامس

مقومات المجتمع : البيئة

المقصود بالبيئة مجموع المؤثرات الطبيعية والجغرافية ؛ وقد قال كثير من المفكرين ان هذه المؤثرات هي التي تعين طبيعة المجتمع وتكوينه . وأغلب الذين يرون هذا الرأي من الطبيعيين ، وفي مقدمتهم « أبقراط » (Epicurus) الذي نوه في كتابه « الأهوية والمياه والأماكن » بصدد المقارنة بين الآسيويين والأوروبيين ، بتأثر العوامل الطبيعية والجغرافية في تكوين الشعوب والمجتمعات فقال :

« أريد بالمقارنة بين آسية وأوربة أن أبين كيف أن كليهما تخالف الأخرى في كل شيء ، وأنه ليس بين الأمم التي تقطن كليهما أية مشابهة في البنية . وقد يكون من التزام ما لا يلزم تعداد جميع الفروق ، بل أكتفى بأكثرها أهمية ، وأشدّها بروزا للعيان ، لأعرض رأيي الذي

ارتأته في ذلك ، فأقول : ان آسية تختلف عن أوربة اختلافاً عظيماً
بطبيعة حاصلاتها جميعاً ، سواء فيها ما تخرج الأرض وما يخرج من
ظهور الناس الذين يزرعونها • فكل ما يتولد في آسية يفضل ما يتولد
في أوربة فضلاً كبيراً في الجمال وفي بسطة الجسم • جوها أكثر
اعتدالاً ، وأممها أدمت أخلاقاً وأسهل قياداً ، والعلة في ذلك هو التوازن
التام بين الفصول ••• فان الماشية التي ترعى في أرض آسية حسنة
خصبة التكاثر الى حد مدهش ، وتربيتها ناجحة الى الغاية • وأما
الناس فيها فتموهم عظيم ، يمتازون عن الأجناس الأخرى بجمال
صورهم وفضل قامتهم ، ولا يختلف بعضهم عن بعض في الرواء ولا
في الصورة • ويمكن أن يقال : ان مثل هذه الجهة بينها وبين الربيع
نسب يكاد يكون متصلاً بالنظر لتأليف فصول السنة ولطف آثارها ،
ولكن لا شجاعة الرجولة ولا مصايرة المشاق ولا اجهاد النفس في
العمل ولا شدة البأس كل هذه الصفات لا تنمو في مثل هذه الطبيعة ،
سواء فيه الوطنيون والمستوطنون ، بل أن حب الملاهي عندهم يتغلب
على ما عداه من الميول الأخرى ••• أما من جهة ضعة النفس وعدم
الشجاعة فان الأسيويين اذا كانوا أقل ميلاً للحرب وأكثر سلاماً في الطبع
من الأوربيين فعلة ذلك انما هي على الخصوص في حال اقليمهم حيث لا
توجد تقلبات شديدة لا في الحر ولا في البرد بل قليلاً ما يشعر بتغير الجو ،
وحيث لا يعترى العقل صدمات ولا يعرف الجسم تغيرات ، وتلك انفعالات

من شأنها أن تكسب الخلق وحشية وتمزج به ميلا للجماح والعصيان أكثر مما تفعل الحال الجوية دائمة التماثل . الا أن التغيرات من النقيض الى النقيض هي التي تنبه العقل الانساني وتمنعه من أن ينام في ظلال السكون . . « (١) » .

وأيد « أرسطو » رأي « أبقراط » فقال في أثر اختلاف الاقاليم في تكوين المجتمع : « لكي يلتم المرء بهذه الصفات ما عليه الا أن يطرح نظره الى أشهر المدائن الاغريقية والى بقية الأمم المختلفة التي تتقاسم سطح الأرض ليرى أن الأمم التي تسكن الأقاليم الباردة حتى في أوربة هي على العموم مملوءة بالشجاعة ولكنهم على التحقيق أقل ذكاء في العقل ومهارة في الصناعة ، وبهذه المثابة يحتفظون بحريتهم خير احتفاظ ، ولكنهم من الجهة السياسية غير قابلين للنظام ، ولم يستطيعوا مطلقا ان يقهروا جيرانهم . أما في آسية فالأمر على ضد ذلك ، فان أممها أكثر ذكاء وقابلية للفنون ، ولكنهم تنقصهم قوة القلب ويصبرون على البقاء تحت نير العبودية المؤبدة . أما الجنس الاغريقي الذي هو بموقعه الجغرافي وسط بين هؤلاء وهؤلاء فانه يجمع صفات الطرفين ويجمع بين الذكاء والشجاعة ؛ يعرف كيف يجمع بين حفظ الحرية وبين تأليف حكومات غاية في النظام . فهو جدير اذا توحدت

(١) سانتهلير ، ص ٩٢ .

كلمته فى حكومة واحدة ان يفتح العالم . » (٢) .

ولم تكن هذه الآراء غريبة على مفكرى الاغريق الآخرين ، فقد جاء فى أساطيرهم أن الشمس بحرارتها الكاوية ، هي التى أعطت الاحباش لونهم ، وهي التى أوجدت الصحارى الشاسعة ؛ وأرجع « هيرودوت » (Herodotus) حضارة المصريين الى تأثيرالعوامل الجغرافية ؛ وكذلك فعل « ثوسيديدس » (Thucydides) فى تحليل تفوق الاغريق فى الحضارة .

وأوضح « ابن خلدون » فى « المقدمة » أثر البيئة فى تكوين المجتمعات فقال : « ... فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والملابس والأقوات والفواكه بل والحيوانات وجميع ما يتكون فى هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً حتى النبوءات فانما توجد فى الأكثر فيها . ولم نقف على خبر بعثة فى الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية وذلك أن الأنبياء والرسل انما يختص بها أكمل النوع فى خلقهم وأخلاقهم ... وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم فنجدهم على غاية من التوسط فى مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة ويتنازعون فى استجداء الآلات والمواعين ويذهبون فى ذلك الى الغاية ... واما الأقاليم البعيدة عن

(٢) المرجع عينه ، ص ٩٦ .

الاعتدال ... فأهلها أبعد عن الاعتدال فى جميع أحوالهم فبناؤهم
بالطين والقصب وأقواتهم من الذرة والعشب وملابسهم من أوراق
الشجر يخصصونها عليهم أو الجلود وأكثرهم عراة من اللباس ...
وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم حتى لينقل عن
الكثير من السودان أهل الاقليم الأول أنهم يسكنون الكهوف والفياض
ويأكلون العشب وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضا
وكذا الصقالبه والسبب فى ذلك أنهم لبعدهم عن الاعتدال يقرب
عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم ويبعدون عن
الانسانية بمقدار ذلك * « (٣) » *

وتجدد النشاط الفكرى فى النهضة الأوروبية ، عادت هذه
الآراء الى الظهور من جديد ، وراحت تجارى مقتضيات الحياة الجديدة
باسلوب العلم ، حتى تحولت الى نظرية عامة حاول أصحابها أن
يفسروا بها سيرة الانسان ونظام المجتمعات وتكوينها * ويعتبر « بودن »
(Jean Bodin) وهو فى الطليعة من مفكرى العصر الحديث ، ممن أشار
فى كتابه « الجمهورية » ، فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ،
الى أثر البيئة فى تباين الأفكار وقواعد الأخلاق بين الأمم ، معارضا
بذلك القائلين بعالية الأسس الفكرية والأخلاقية *
وجاء بعده « مونتسكيو » فأيد صواب ما ابانه مفكرو الانعريق

والمفكرون الذين سبقوه ، بخصوص أثر البيئة فى حياة الأمم ، وتوسع بهذا الرأى بان دلل بالشواهد على بعد أثر العوامل الجغرافية فى ثقافة كل أمة • وصنف « مونتسكيو » الحكومات فى ثلاثة أصناف هي : الجمهورية والملكية والمستبدة ؛ وأرجع كل صنف الى الأصول الأخلاقية والنفسية التى تقومها العوامل الجغرافية والعوامل الاقتصادية المتأثرة بالعوامل الجغرافية • وأشار على الخصوص ، الى ما تثيره العوامل الطبيعية من الرهبة والقلق وعدم الاستقرار فى نفوس الناس فى بعض الأقاليم بحيث تضعفها فتحملها على الخضوع لنظام الاستبداد وللحكم المطلق ، كما هو شائع فى جهات من الشرق •

وجاء من بعده « بوكلى » (Henry Thomas Buckle) المفكر الانكليزى ، فأسهب فى كتابه (*Civilization in England*) فى بيان أثر البيئة فى تكوين المجتمعات باختلاف طبيعة التربة والمناخ وما ينجم عن ذلك من اختلاف الحاصلات الزراعية ونظام الانتاج وتراكم الثروة • فقال ان قيام حضارة القرون القديمة فى المنطقة الممتدة بين الصين ووادى النيل ، مرجعه الى ما امتازت به هذه المنطقة من خصوبة التربة ووفرة المياه اللذين بفضلهما ازدهرت الحضارة فى مصر وفى الهلال الخصيب وفى الهند والصين ؛ واستشهد على ذلك بتاريخ العرب والمغول ، فقال ان هذين الشعبين لو لم يخرجوا من صحاريهما القاحلة الى جهات من هذه المناطق الخصبة ، لما استطاعا أن يجتازا دور

البداوة *

وقال « بوكل » ان أثر البيئة يظهر أولا فى تعيين نوع الغذاء ومقداره ؛ ومن ثم فى تأثير طبيعة البلاد فى نفوس الناس * حتى لقد زعم أن فى استطاعتنا أن نستدل على حضارة الأمة واستعداداتها من غذاء أفرادها وطبيعة بلادها ؛ باعتبار أن الغذاء تنحصر مهمته فى أمرين : حفظ حرارة الجسم بتوليد حرارة يستعاض بها عما يستهلكه ؛ وضمان نمو الجسم وصيائه بتوفير ما تحتاج اليه الخلايا من المواد الأزوتية * وتكون الافادة من الغذاء مولد الحرارة باستنشاق الأكسجين لاحتراق الكربون فيه * ولما كان الكربون يتفاعل مع الأكسجين بنسبة ثابتة ، فان مقدار الحاجة اليه تناسب عكسيا مع درجة الحرارة ، أى ان حاجة الانسان الى الغذاء الغني بالكربون تزداد بنسبة انخفاض درجة الحرارة * ولهذا نرى الاسكيمو فى أقصى الشمال ، يحفظون حرارة الجسم بشرب زيوت السمك ، بينما يقتات سكان البلاد الحارة بالثمار والخضروات ، التى لا يزيد ما تحتوى عليه من الكربون على سدس ما تحتوى عليه الزيوت ؛ ولو حاول الاسكيمو أن يعيشوا على الثمار والخضروات ، أو حاول أهل البلاد الحارة أن يقتاتوا بشرب الزيت ، لكان الموت مصيرهما *

وقال « بوكل » ان الأغذية الغنية بالكربون ، هي على وجه العموم ، نادرة الوجود لا تتوافر للانسان الا بعد كدح وعناء ، بعكس

الثمار والخضروات والحبوب التي يقتات بها سكان البلاد الحارة والمعتدلة . ومن هنا كان أثر الأغذية في تزايد النفوس وأحوال الشعوب وأنظمة المجتمعات ؛ فإذا توافرت الأغذية وسهل الحصول عليها واستطاع الانسان أن يحيا باليسير منها ، تزايدت النفوس وتضاءلت أجور العمل وهبطت قيمة الفرد ومال الناس الى الخنوع وغلبتهم الذلة والمسكنة وتراكمت الثروة في جانب وشمل البؤس المجموع . وتلك حقيقة تبدو للعيان ظاهرة في جميع الحضارات القديمة التي قامت على ضفاف الأنهار وفي وديانها الحصية وافرة الخيرات ، حيث كان الناس يقتاتون بالأرز والذرة والتمر والثمار والخضروات وهي وافرة مبدولة . فالأرز في الهند يعود بستين ضعفاً ، والذرة في صعيد مصر تعطي أربعين ومائتي ضعف ، والذرة البيضاء في المكسيك وبيرو تعود بأربعمائة ضعف ، والتمر في بلاد العراق يبلغ من الوفرة بحيث يقدم طعاماً للماشية والدواب . وكل هذه الأغذية والثمار ، على وفرة منتوجها ، لا تحتاج في زراعتها وفي العناية بها الى غير القليل من العناء ، فالنخيل تكاد تنمو من تلقاء نفسها ، والأرز يكفي أن تبذر بذوره فيجنى حاصله . ولقد بلغ من توافر الخضروات في أقطار الشرق ، أن العرب وجدوا في الأسكندرية عند احتلالهم مصر ، نيفا وأربعة آلاف شخص يعرضونها في الأسواق . وكان طبيعياً ، كما يقول « بوكال » ، أن ينجم عن وفرة الغذاء

واعتدال الجو وارتفاع الحرارة ، زيادة فى النفوس ، حتى كانت هذه الأقاليم أشد بقاع الأرض ازدحاما بها ، كما هو مشهود الآن فى الصين وفى الهند ، وكما جاء فيما ذكره الأقدمون عن مصر ؛ فقال هيرودوت انه كان فيها عشرون ألف بلدة مزدحمة بالسكان ؛ وقال « سيسولتس » (Diodorus Siculus) الذى زارها قبل عشرين قرناً ، أنها كانت أشد البلدان ازدحاما بالسكان لأن وفرة الغذاء والاستغناء عن اللباس يسر للفقراء ان ينجبوا المزيد من الأولاد وما كانوا يحتاجون الى كساء ، حتى أن أحدهم كان لا يكلف أبويه حتى بلوغه الرشد ما يزيد على عشرين درهما . وكان لا مفر من أن يؤدى تزايد النفوس وهذا الرخص فى المعيشة - فى رأي « بوكل » - الى انخفاض أجور العمل وارتفاع نسبة الأرباح التى بلغت فى الهند ، مثلاً ، ستين فى المائة ، فتراكمت الثروة فى يد الأقلية الحاكمة وغمر الفقر جمهور الناس وبلغت الفوارق بين الطبقات أقصى الحدود . فكان الفقير - فى الهند - اذا جلس الى جانب « برهمى » بترت ساقاه ، واذا ذكره بلمحة خالية من الاحترام حرق فمه ، واذا واجهه بالاهانة قطع لسانه ، واذا استمع الى الكتاب المقدس صبّ زيت مغلي فى أذنيه ، فاذا حاول حفظ عبارة منه كان الموت جزاءه . وحرمت القوانين على الفقراء فى الهند جمع الثروة وفرضت عليهم عبودية وراثية لا خلاص منها ؛ وحرمت شرائع المصريين القدماء على الفقراء تغيير مهنتهم والتدخل

بشؤون الحكم وامتلاك الأرض . وهكذا انحط الجمهور الى دركة
البهائم وتضاءلت قيمة الفرد حتى استهان الحكام بجهود البشر
وأرواحهم ، فسخر الفراغة مثلا ألفي رجل ثلاث سنوات لنقل كل
حجر من أحجار الاهرامات من محاجرها الى أماكن الانشاء ، حتى
استغرق بناء الهرم الكبير جهود ثلثمائة وستين ألف عامل مدة عشرين
سنة ، وما كان الا قبرا لفرد . وكذلك لم يعبأوا بان ينفى
وعشرين ألف عامل فى حفر قناة البحر الأحمر . وكان الاسراف
فى جهود الناس مظهرا من مظاهر الحضارات القديمة فى جميع البلدان
الحارة والمعتدلة : ففي المكسيك استلزم بناء قصر لأحد ملوكها جهود
مائتي ألف عامل ، وفى بيرو اشتغل فى انشاء قصر الملك عشرون ألف
عامل زهاء عشرين عاما . وهذه كلها شواهد لا نجد لها مثيلا فى
البلدان الباردة التى يكسب الناس فيها عيشهم بعد عناء وكدح ،
ويضطرون فيها الى ضبط نسلهم خشية الاملاق ، ويعتزون
بحريتهم وقيمون لأنفسهم وزنا .

وقسم « بوكال » الشعوب باعتبار تأثير البيئة الى قسمين : الأول
يغلب فيه الحيال ، كما هو الحال فى البلدان الحارة ، حيث تكون الطبيعة
طاغية جبارة فتثير فى نفوس الناس الرعب والفرع وهما منبع الحيال ،
وتيسر لأهلها أسباب العيش دون عناء فتوحي اليهم الشعور بالتفاهة
والحقارة ، فيحيون حياة الانكال ولا يرون أنفسهم أهلا لاكتشاف

خفايا الوجود واستنباط سننه • اما القسم الثاني فيغلب فى الأصقاع الباردة ، حيث لا يكون للطبيعة فضل ظاهر فى كسب الناس أقواتهم لأنهم يحصلون عليها بعد جهد وعناء ، وحيث لا يكون فى معالم البيئة من مظاهر القوة والجبروت ما يثير الرعب فى النفوس أو ما يوحى الى الانسان الشعور بالتفاهة والحقارة ، فينشأ الانسان معتمدا على نفسه معتزلا بها وتنمو فيه قوة التفكير وتحكيم العقل والنزعة الى اكتشاف أسرار الطبيعة وتسخير مرافقها •

وذكر « بوكل » الهنود القدماء مثلا للقسم الأول والاغريق مثلا للقسم الثاني ، فاستشهد بالفارق العظيم بين حضارة الهنود التى غلب فيها الخيال فى رأيه ، وحضارة الاغريق التى غلب فيها الفكر • فقال ان الانسان فى الهند ، كان معرضا على الدوام لأخطار الزلازل والزوابع والفيضانات والأوبئة والحيوانات المفترسة والحشرات الفتاكة ، حتى كادت أن تغلق بوجهه أبواب النجاة ومثل أمامه شبح الموت فأثار فى نفسه بواعث الرعب الدائم ، فلم يجد مخرجا له الا أن يوكل مصيره الى القوى الخارقة التى لا حول له حياها ولا قوة • وحيثما يغلب الشعور بالخطر والشعور بالعجز عن دفعه ، يقف عمل الفكر ويغلب الخيال ، فتسود الأضاليل والأوهام ؛ وتلك حقيقة ، كما يقول « بوكل » تتجلى فى آداب الهند وفى أديانها وفنونها • فأدباء الهند ومفكروها كان جلهم من الشعراء ، لأن الشعر كان أوقع فى نفوس

الناس ؟ فوضعت الآداب وكذلك العلوم مثل قواعد اللغة والقانون والتاريخ والطب والرياضيات والجغرافية ، كلها شعرا ؟ وفاضت الأشعار بمبالغات لا يقبلها العقل ولا يرتضيها الإدراك السليم ؟ وغلب الاهتمام بالماضي المجيد وبمناقب الأجداد وجلائل العصر الذهبي على الحاضر والواقع ، وذلك شأن أهل الشعر في غالب الأحوال لأنهم يرجحون الحديث عن كل ناء ومجهول • وذكر « بوكل » من الأمثلة على اغراقهم بالمبالغة : ما زعموه من أن عمر الإنسان العادي في العصر الذهبي كان لا يقل عن ستين ألف سنة ؟ وأن الأخيار من أهل ذلك العهد كانوا يبلغون المائة ألف سنة • وأن أحد ملوك هذا العصر ، تولى الملك وعمره مليون سنة ، فحكم ستة ملايين وثلثمائة ألف سنة ، ومن ثم تنازل عن العرش ليقضى شيخوخته ، التي دامت مائة ألف سنة ، في ظل السكينة والهدوء • ولقد أدعوا أن شريعة « مينو » وضعت منذ ألفي مليون سنة ، بينما الحقيقة أنها لم يمضي على وضعها أكثر من ثلاثة آلاف سنة • وهذا الاغراق في الخيال لم يكن - في رأي « بوكل » - الا مظهرا من مظاهر تضائل قابلية التفكير وضعف الإدراك •

واستشهد « بوكل » فوق ذلك بما بدا من انعكاسات الفرع في آلهة الهنود القدماء : فالآله « سيفا » يمثل كائناً هائلاً مربعاً تحيط به الأفاعي ، وفي يده جمجمة إنسان ، وفي جيبه قلادة من عظام البشر ،

له ثلاث عيون ، وعليه جلد نمر ، وهو يبدو مهتاجاً كالمجنون .
اما امرأته « دوركا » ، فجعلها أزرق غامق ، وكفها أحمر قان ،
إشارة لتعطشها لدماء البشر ، ولها أربع أذرع فى أحداها جمجمة
عملاق ، ولسانها متدل وجيدها مزين بجماجم البشر ؛ وهكذا
بقية الآلهة .

ولقد كان الاغريق الذين ابدعوا الفلسفة وبرعوا فى العلوم وفى
الفنون ونظم الاجتماع ، واقعيين على عكس الهنود والعلة فى ذلك فى
رأى « بوكل » ، انما ترجع الى طبيعة بلادهم التى كانت على تقيض
طبيعة بلاد الهنود .

وكان « هربرت سبنسر » من أشهر مؤيدى هذا الرأى بعد
« بوكل » ، ولكن موضوع البيئة وأثرها فى تكوين الانسان احتل
مقامه العلمى بعد ظهور « دارون » الذى وضع نظرية النشوء والارتقاء
على اعتبار أن البيئة هي العامل الفعال الذى يقرر بقاء النوع وتطوره .
وبدت نظرية البيئة منذ ذلك الحين معارضة لنظرية الجنس ، فقال
« كرانز ألن » (Grant Allen) ، أحد تلامذة « هربرت سبنسر »
ومن أشهر أنصار نظرية البيئة :

« ان التباين بين أمة وأخرى ، سواء فى الادراك والطباع أم
فى الأخلاق والفنون والتجارة ، لا شأن له بأسرار الجنس وخصائصه ؛

وانما مرجعه الوحيد ، ما تعرضت له كل أمة من المؤثرات الطبيعية •
فان كان حقا - كما هو باد للعيان - أن الشعب الفرنسي يختلف في
الظاهر عن الصينيين ، كما يختلف أهل « همبرك » عن أهل « تمبكتو » ،
فان هذا الاختلاف المشهود انما يرجع بأسره الى تباين مواقعهم
الجغرافية • فلو أن الذين أقاموا في « همبرك » توجهوا في البدء
الى « تمبكتو » لما تميزوا الآن عن انزواج أشباه البرابرة ، المقيمين الآن
في هذه المدينة الأفريقية • ولو أن أهل « تمبكتو » توطنوا في الأصل
في « همبرك » ، لكانوا الآن تجارا من البيض يتعاطون تجارة رائجة
في صنوف النبيذ والخمر • • • واذاً ، فان عوامل التباين بين المجتمعات
يجب ان تستقصى في المعالم الجغرافية الثابتة في البر والبحر • • •
فهي التي جبلت كل شعب على وجه البسيطة بما جبل عليه ، وصيرته
الى ما صار اليه • « (٤) » •

فلما جاء « راتزل » (Friedrich Ratzel) الجغرافي الألماني ،
عقب ذلك ، كان هذا الرأي قد بلغ من الشيوع بحيث حمل
« راتزل » على وضع علم جديد أسماه « جغرافية الانسان »
(Anthropogeography) ووضع فيه كتابا بمجلدين ، أوضح فيه
تأثير البيئة في توجيه الثقافة ، وفسر انتشار الانسان على سطح الارض
وقيام الثقافات المتباينة تفسيراً جغرافياً ، معتمداً على « واكنر »

(٤) James ، ص ١٨٠ •

(Moritz Wagner) صاحب نظرية تنوع الأجناس بتأثير الهجر والعزلة • واشتهر « راتزل » بأقواله الماثورة في تأثير البيئة ومنها قوله : ان الانسان ليس الا قطعة من الأرض التي يحيا فيها •
وأشتهر بعد « راتزل » المفكر الفرنسي « ديمولن » (Edmond Demolins) ومن مؤلفاته في هذا الموضوع كتابه (Histoire de France) في أربعة مجلدات ، « وسر تفوق الانكلو سكسون » (Aquoi Tient la supériorité des anglo-saxons) وفيهما تناول موضوع أثر البيئة والعوامل الجغرافية في حياة الأمم ، وهو الموضوع الذي اطلق عليه اسم « الجغرافية الاجتماعية » (Sociography) • وقال « ديمولن » ، ان الانسان لو أعاد سيرته الأولى من دون ان يتبدل وجه الأرض ، لأعاد التاريخ نفسه من دون تحوير ؛ وذلك لأن طبيعة أصقاع الأرض المتباينة لابد أن تؤثر في قيام المجتمعات فتخرجها على صورتها الحاضرة (٥) •

وعلى أساس التفسير الجغرافي لنشوء المجتمعات وتطورها ، يقسم أصحاب نظرية البيئة ، تاريخ الانسان الى ثلاثة أدوار : الدور الذي قامت فيه الحضارة على ضفاف الأنهار ، وهو يشمل تاريخ الانسان في وادي النيل وفي الهلال الخصيب وعلى ضفاف الكنج واليانكتسى ؛ والدور الذي قامت فيه الحضارة على سواحل البحار ، ويشمل

(٥) Marret ، ص ٩٨ •

الحضارات التي قامت في شطوط البحر الأبيض المتوسط مثل حضارات
الفينيقيين والاعريق والرومان والعرب في اسبانية ؛ ودور حضارة المحيط
الأطلسي ، وهو دور الحضارة الأوربية الحاضرة . ويرون أن
تاريخ الانسان سوف يبدأ دوراً جديداً بعد أن تتم له السيطرة على
المحيط الهادئ ، فيتحول مقام الحضارة الى الشرق الأقصى ، الى أميركة
والصين والهند واليابان وأستراليا

ويقول هؤلاء ، أن طبيعة البراري والبحار هي التي أوجدت
البداوة وما لازمها من العادات والتقاليد والنظم . ويقولون ان التحول
من أدوار البداوة والخروج من الصحارى فى موجات متعاقبة ، لم
يكن الا نتيجة تحولات جغرافية متناقضة ؛ فقد تتعاقب سنين يهطل فيها
المطر غزيراً ، فيكسو العشب سطح الأرض فتكاثر الانعام والماشية
وتتزايد النفوس ، ثم تعقبها سنين قحط لا يجد فيها سكان البادية مفراً
من الموت المحقق الا أن يهيموا على وجوههم ويهجروا أوطانهم الى
البلدان القريبة منهم . وفى حالات مثل هذه ، خرج الساميون من
جزيرة العرب فأنشأوا لهم تاريخاً جديداً وأقاموا مجتمعات ونظماً لا
تمت بصلة الى حياتهم الأولى . وبمثلها أيضاً ، خرج المغول من
صحارى آسية الوسطى وانتشروا فى أطراف الصين والهند وإيران
وفى الشرق الأدنى .

ويفسرون التباين بين ما أوجدته شعوب أوربة الشمالية من النظم

الاجتماعية ، وما أوجدته شعوب أوربة الوسطى والجنوبية ، باختلاف بيئاتها الأصلية • فشعوب أوربة الشمالية عاشت فى غابات كثيفة كانت حياتها فيها كفاحا متصلا ؛ بينما شعوب أوربة الوسطى والجنوبية ، جاءت اليها من برارى آسية وأفريقية ، حيث عاشت حياة بداءة ورعاية • وكان من أثر البيئة - فى رأيهم ، أن أختارت هذه الشعوب أوطانها الجديدة فى أصقاع تستطيع أن تعيش فيها حيواناتها • فالشعوب التى تمت فى الأصل الى آسية ، احتفظت بتربية الحيوانات التى جاءت بها من آسية ولم تتجاوز المناطق التى تستطيع أن تحيا فيها هذه الحيوانات • فالذين يتكلمون الفرنسية من أهل سويسرة مثلا ، لم يتجاوزوا حدود بلدة « سيون » حيث تبدأ منطقة الناطقين بالألمانية ، وبلدة « سيون » هذه هي نهاية المنطقة التى ينمو فيها البلوط • ويقولون ان من أثر البيئة أيضا ، أن كثيرا من الاصقاع تخلو من السكان على شدة خصوبتها ووفرة مياهها ، بسبب أن مناخها يساعد على تكاثر الحشرات الفتاكة ، كما هو شأن « أوغنده » بأفريقية ، حيث تكثر حشرة « تسي تسي » التى تحمل مرض النوم (٦) •

ويشيرون فى هذا الخصوص أيضا ، الى أثر الموقع الجغرافى فى الأمم وطبيعة المجتمعات ، باعتبار ان موقع البلدان هي التى تقرر مدى اتصالها بالعالم وكيفية هذا الاتصال وأغراضه : المتاجرة أو الهجرة

(٦) Newbegin ، ص ١٦٢ و ١٩٢ •

أو الحرب ، وكل ذلك يؤثر فى أوضاعها السياسية وفى ثقافتها وسبل الحياة فيها ويقرر وجهة تاريخها . فتاريخ العراق ومصر وفينيقية والاعريق واسبانية مثلا ، انما تقرر فى رأيهم بحكم مواقعها الجغرافية : فمجاورة العراق لجزيرة العرب جلبت اليه الساميين فكان مهد حضارتهم ، ووقوعه على طريق الفاتحين من الشرق والغرب ، جعلته ساحة منازعاتهم وحروبهم ؛ ومثل ذلك جرى لمصر أيضا . اما الفينيقيون فقد شذوا فى حياتهم عن بقية الساميين ، لشذوذ موقعهم الجغرافى الملائم للتجارة . وحضارة الاعريق ، يرجع الفضل فيها فى رأيهم الى موقع البلاد الجغرافى الذى هيا لهم الاتصال بالايحيين والمصريين وبقية أمم الشرق الأدنى . أما اسبانية ، فان قربها من أفريقية وتوالى هجمات البرابرة عليها وقيام جبال البرنة عائقا للاتصال الميسور بينها وبين بقية جهات أوربة حال دون مجاراتها البلدان الأوربية الأخرى فى مضمار التقدم بالرغم من توافر أسباب الحضارة فيها .

وأخيرا ، يذكرون أهمية توافر المعادن أو ندرتها فى تقرير تاريخ المجتمع ونظامه ، وهو أمر يتعلق بالبيئة وبطبيعة البلاد الجغرافية ، وليس أدلّ على أهمية المعادن فى تاريخ الأمم - كما يقولون - من تفسير أدوار التاريخ على أساس المعادن التى استعملها الانسان فى صنع أدواته وآلاته . ولقد تفوقت كثير من الشعوب على غيرها بسبب أن

سلاحها كان من معدن أكثر صلابه مما تيسر لأعدائها • وتاريخ
انكلترة الحديد ، يرجع الفضل فيه فى الدرجة الأولى فى رأيهم ، الى
موقعها الجغرافى والى وفرة الحديد والفحم الموجود فيها قريبا بعضه
من بعض • وكثير من أقطار الأرض تقرر مصيرها بسبب وجود
المعادن فيها ، كما هو الحال فيما آلت اليه أفريقية الجنوبية بعد أن
أكتشف فيها الماس والذهب ، وكذلك ألاسكا وأستراليا (٧) •

ونظرية السئة هذه ، تعتمد فى الأساس على « الطبيعية » ، وهي
فلسفة تقوم بشتات من الآراء ووجهات النظر ، حتى لتختلط فيها
المثالية والمادية ، فتبدو فى بعض وجهاتها موافقة للفلسفة المادية ، وتبدو
فى وجهاتها الأخرى متأثرة بالمثالية ، تحت ضغط الظروف التى تقوم
فيها والمصالح التى تلتزمها ، بيد أنها تجلت على أحسن صورها فى
المادية الميكانيكية • وقد صور « روسو » وهو متأثر بالطبيعة ، انسان
الطبيعة ومجتمع الطبيعة خلواً من المفاسد التى تنشأ بتأثير عوامل
الحضارة المصطنعة • ونادى الطبيعيون بحقوق الانسان الطبيعية فى
نضالهم ضد استبداد الطغاة وجور الحكومات ، وكان لهم أثر ظاهر
فى توجيه الحركات السياسية قبيل الثورة الفرنسية وبعدها ، وما زلنا
حتى اليوم ، نسمع النداءات التى تقول بحقوق الانسان الطبيعية •

(٧) Newbegin ، ص ١٩ : و ٢٣١ •

وكان طبيعياً أن تعتبر البيئة في « الطبيعية » العامل الرئيسي الفعال في تكوين حياة الانسان وفي توجيهها ، لأنها أعظم مظاهر الطبيعة شخصاً وأبعدها أثراً ؛ وكذلك أن تعتبر أحكام البيئة في الحياة العامة ثابتة ونافذة بالضرورة ، ثبوت قوانين الفيزياء مثلاً لأنها وجه من وجوه الطبيعة •

ولقد كان من خصائص « الطبيعية » في الاجتماع ، أن تميل الى مذهب « الفردية » ، باعتبار أن الفرد هو العنصر المتأثر بأحكام البيئة ؛ وان تعارض الأحكام الاجتماعية لأنها أحكام تراها مصطنعة تمليها ارادة العناصر المتحكمة في المجتمع تنفيذاً لمصالحها الخاصة وصيانة لها • وكان من خصائصها أيضاً ، أن تميل الى الاعتدال ، فتحتل مقاما وسطا بين دعاة الحقوق الموروثة من النبلاء الذين زعموا أنهم أحق بالحكم لأنهم أكثر أهلية له بفضل الخصائص الموروثة التي يمتازون بها عن جمهور العامة ، وبين الثوريين الذين يريدون أن يقتلعوا النظم التي تقوم بهضم حقوق الشعب والتحكم بشؤونه بالقوة ليقموا في مكانها نظماً تتمثل بها ارادة الشعب ومصالحه • ولقد تجلت نزعة الاعتدال هذه في « الطبيعية » في آراء « مونتسكيو » الذي كان يفاخر باعتداله ، على الرغم من أنه بحملته على الاستبداد والرق والتعصب الديني والضرائب المرهقة والقوانين الجائرة وباعجابه العظيم بنظام الحكم في انكلترا وقف في صفوف المفكرين الأحرار في عصره ، إلا أنه لما عرض مسودة

كتابه « روح القوانين » على جماعة من اصحابه لمعرفة رأيهم فيها - وكانت عادة مألوفة بين المفكرين والكتاب في ذلك العهد - لم يجذبوا نشرها ، وقال « هلفاتيوس » ان روح الاعتدال التي تجلت في آراء « مونتسكيو » فيها هي التي حملته على معارضة نشرها ، لأنها تفسد أثرها وتذهب بقيمتها (٨) .

وكان طبعاً ان تبني الطبقة الوسطى ، وهي في مستهل حياتها ، نظرية البيئة التي تؤيد فكرة الفردية وتعارض التدخل الحكومي في تنظيم الحياة العامة وتوجيهها ، بحكم صلتها الوثيقة بالطبيعة التي انبثقت منها . ولقد تجلت صلة « الفردية » بنظرية البيئة في الآراء التي عرضها « هيربرت سبنسر » في أشهر مؤلفاته : *Social Statics* و *The Man Versus The State* و *Principles of Sociology* فصور في كتابه الأول ، المجتمع المثالي الذي يقوم بالانسجام التام بين الفرد ومحيطه ، هذا الانسجام الذي يتحقق في رأيه في تضيق مجال التدخل الحكومي في شؤون الفرد تدريجياً من جهة ، وتوسيع مجال تمتع الفرد بحقوقه الطبيعية توسيعاً تدريجياً من جهة أخرى . وأعتبر « سبنسر » الحكومة شراً لا بد منه في المجتمعات البدائية والعسكرية منعاً للاعتداء الذي هو أكبر اعداء السعادة البشرية ؛ على أن سلطان الحكومة لا بد وأن يتضاءل بالضرورة كلما تقدم المجتمع وأرتقى ، حتى

(٨) راجع Montesquieu في دائرة المعارف البريطانية

إذا بلغ الطور الذى يتحقق فيه الانسجام فى المصالح ويتم فيه التوافق بين نظام المجتمع وأحكام الطبيعة زالت الضرورة الى الحكومة وتحقق المجتمع الذى هو خلو من كل سلطة • وكان من رأي « سبنسر » أن تلغى الحكومة وظائفها تدريجيا كلما تدرج المجتمع فى مضمار التقدم فترك أولا ميدان الاقتصاد للنشاط الفردى ، لأن الانسان وهو اقتصادي بالطبع ، كما يقول « سبنسر » ، فى غنى عن كل توجيه حكومي فى ادراك مصالحه الاقتصادية وتحقيقها • وليس فى مصلحة المجتمع ، فى رأي « سبنسر » ، أن تنشئ الحكومة مؤسسات صحية أو عمرانية أو أن تعنى بالصحة العامة والعمران بأي وجه من الوجوه ، لأن ذلك تدخل فى شؤون الطبيعة وعرقلة لسير أحكام البيئة التى من شأنها أن تبقي الأصلح وتزيل الضعيف الذى لا نفع فيه • وليس من شأن الحكومة كذلك ، أن تفرض التعليم وترعاه ، لأن هذا معناه تدخل فى حقوق الآباء الطبيعية الذين هم أدرى بمصلحة أبنائهم منها ؟ ولأن غير المتعلم ليس أقل نفعاً للمجتمع من الولد المتعلم اذ ليس هنالك علاقة أساسية بين التعليم والصلاح ، فقد يكون شر المتعلم للمجتمع أعظم من شر الجاهل ، فليس التعليم سبيلا الى القضاء على الجرائم • وخير للحكومة أن تترك الفرد معرضاً للطبيعة القاسية لأنها بقساوتها تزيد قوة واحتمالا وأهلية للبقاء • والانسان انما يتقدم بما يبذل من مجهود فى مسعاى لمجاراة أحكام البيئة وضرورتها •

وكان طبيعياً أن تروج مثل هذه الآراء فى فجر الثورة الصناعية ، لأنها كانت تعكس فى الواقع روحية الطبقة الوسطى وهي تسعى الى مقام السلطة عن طريق جمع الثروة ، وتعبّر عن أمانيتها فى الحرية فى تلك الفترة التى كانت تحتاج فيها الى هذه الحرية التى تيسر لها سلب حرية الآخرين والتحكم بشؤونهم . ولا تزال بقية من هذه الآراء تسمع بين حين وآخر ، فى المجتمعات التى لا تزال الطبقة الوسطى فيها ترى أن من مصلحتها تشجيع روح الفردية فى الاقتصاد وترديد نعمة الحقوق الطبيعية التى صارت فى خدمتها منذ أن أُعتبر حق التملك فى قائمة هذه الحقوق .

ولعلنا نستطيع الآن ، بعد هذا العرض الموجز لنظرية البيئة ، أن نستعرض رأي نقادها ، لنرى اذا كان يصح أن تعتبر البيئة العامل الأساسى الحاسم فى تقويم المجتمع . فبالرغم مما لحظرافية الانسان من المقام فى علم الانسان ، باعتباره العلم الذى يبحث فى شؤون الانسان القديم ، وعلى الخصوص الانسان البدائى الذى كان للبيئة فى حياته أثر ظاهر ، الا أن العلوم الاجتماعية تؤيد الآن بوجه عام ، تناقص أثر البيئة فى حياة الانسان الحديث ، بل انها تذهب الى القول بان أثر البيئة يتناسب عكسياً مع درجة ثقافة الانسان ومبلغ نصيبه من الحضارة . وأول ما يؤخذ على أصحاب نظرية البيئة ، اغفالهم فعالية

الانسان ؛ فقد اعتبروه عنصرا منفعلا تجاه مؤثرات البيئة وغفلوا عن الحقيقة الأساسية التى تثبت بان الانسان وهو الحيوان الوحيد الذى يختص بالقدرة على التفكير ، يمتاز عن سائر الحيوانات بقدرته على تبادل التأثير مع البيئة فيكيف حياته لأحكامها أو يكيف البيئة نفسها لضرورات حياته . وبهذا الاعتبار كان الانسان الحيوان الوحيد الذى استطاع أن يحيا فى كل البيئات ؛ وبهذا الاعتبار أيضا كان من الخطأ الحكم بتأثير البيئة فى حياة الانسان من دون تعيين الدور الذى وقع فيه هذا التأثير وزمانه ، لأن الانسان انما يتأثر بالبيئة فيكيف حياته لها أو يكيف البيئة لحياته بحسب ثقافته ومقامه فى الحضارة فالبحار التى عزلت الجزر البريطانية فى العهود الغابرة عن العالم المتمدن ، انقلبت الآن بفضل تقدم الثقافة وأسباب الحضارة الى طرق أوصلتها باجزاء العالم كلها ، فى حين أن طبيعة الجزر البريطانية لم يحدث فيها أي تبدل ظاهر . والأنهار التى كانت تفصل قطرا عن آخر فيما مضى ، أصبحت الآن حلقات اتصال بين تلك الاقطار وتبدل أثرها وخطرها فى حياة الناس بحسب تبدل طراز الحياة ووسائلها .

والانسان ، حتى فى أطواره البدائية ، وأن اضطر أن يجارى أحكام البيئة لضعفه تجاهها ولكنه كان فى كل أطواره يمتاز عن الحيوان بانه كان يبدع الوسائل والعدد التى تيسر له مغالبة عوامل البيئة وتيسر له البقاء ، فهو لم يستسلم لأحكام البيئة مثل سائر الحيوانات وانما

أوجد الوسائل والآلات والأدوات التي استطاع بها أن يكيف البيئة لضرورات حياته ويستغل مرافقها وقواها لتوفير حاجاته • ويقول « كوردن تشايلد »^(٩) ان الطعام كان الحاجة المطلقة التي ركبت الانسان وحملته على السعى للتفتيش عنها ؛ ولقد احرز الانسان أول انتصار على الطبيعة لما باشر انتاج قوته بان راح يزرع غذاءه ويؤهل الحيوانات ويسوقها في خدمته فخرج من ذلك الدور الذي عاش فيه عالة على الطبيعة ، واستطاع أن يوفر لنفسه حاجته من الغذاء بحيث تيسر لبعضه أن يتفرغ لأعمال غير أعمال اعداد الطعام أو جمعه مثل أعمال الفكر والصناعة والادارة ، مما زاد في تمكنه من السيطرة على بيئته بما صار يصنعه من الآلات والأدوات والعدد ؛ وكان انتصاره الثاني على الطبيعة حين استطاع أن يكتشف النار وينشأ لنفسه بيوتاً من الطين والحجارة لأنه بذلك استطاع أن يسيطر سيطرة تامة على محيطه المباشر فيعيش في المناطق المتجمدة الشمالية مثلما يعيش في خط الاستواء • وليس هنالك ما يدل على أن الانسان تقيد في أنشاء الحضارة بيئة معينة ، وانما هو استطاع ، بفضل ثقافته التي مكنته من السيطرة على الطبيعة ، أن ينشئ حضاراته في بيئات متباينة ، فأنشأ حضارات في المناطق الحارة ، في الهند وفي جزر الهند الشرقية ؛ وأنشأها في مناطق معتدلة ، في العراق ومصر وايران وفي بلاد الاغريق

(٩) راجع كتابه : *Progress of Archæology*

والرومان ؛ واستطاع أن يحيا فى جزر المحيطات وفى أعلى الجبال وفى المناطق المنجمدة • وكل واحدة من هذه المناطق والأقاليم تختلف عن الأخرى اختلافا كبيرا فى البيئة والخصائص الجغرافية • ولقد بلغ تفوق الانسان فى الثقافة حداً جعل أثره فى البيئة أعظم من أثر البيئة فى حياته ؛ وان هذا الأثر لفي تزايد مستمر ، كلما تقدم الانسان فى ميدان المعرفة وتضلع فى العلوم وأتقن الفنون الآلية • فبالمعرفة والآلة استطاع الانسان أن يمخر عباب المحيطات ويركب الرياح ويجعل من البحر والمحيط واسطة اتصال بعد أن كانت حواجز قطيعة ؛ واستطاع كذلك أن يستخرج المعادن والنفط من جوف الأرض فيستخدمها فى زيادة سيطرته على الطبيعة وفى تسخير قواها لخدمته • وبفضل المعرفة والآلة استطاع الانسان أن يوسع أفق بيئته بحيث ضمت عالم المخلوقات التى لا ترى الا بوساطة المجهر وعالم الأجرام الذى لا سبيل الى ادراك نهايته •

ولقد كان سهلاً فيما مضى ، أن يغفل المفكرون أثر الانسان وثقافته فى انشاء المجتمع وفى تنظيم حياته فيرجعونها الى الغريزة والجنس أو الى البيئة والعوامل الجغرافية ، ولكن امراً مثل هذا أصبح الآن يّسن الخطأ بعد أن بلغت قدرة الانسان فى السيطرة على البيئة واستغلال العوامل الجغرافية ومرافق الطبيعة هذا المبلغ من القوة والوضوح • وليس هناك شك فى أن المظاهر الطبيعية بما فيها البيئة

والعوامل الجغرافية من شأنها أن تلوح للانسان بما يقتضى عمله ، ولكن قدرة الانسان على ادراك مدلول ذلك فى تحقيق مقتضيات حياته ، منوطة بثقافته التى تعين له مدى حاجاته من جهة والوسائل التى يحققها بها من جهة أخرى . ولقد كانت المعادن فى جوف الأرض منذ زمان ، وكانت الكهرباء فى الوجود منذ الأزل ، لكن الانسان لم يكن يدرك حاجته اليهما أو ان يستطيع استغلالهما لفائدته حتى بلغت ثقافته درجة تيسر له فيها أن يدرك تلك الحاجة وان يتغلب عليها .

فالانسان وان كان يخضع لأحكام الطبيعة مثل سائر الحيوانات ، ولكنه المخلوق الوحيد الذى يحاول فى خضوعه للطبيعة أن يكشف أسرارها ويسخر قواها لمنفعة نفسه . وما تقدمه فى الحقيقة الا مظهرا من مظاهر زيادة معرفته بأسرار الطبيعة ونمو قدرته فى تسخير قواها واستغلال مرافقها . وبفضل تقدمه فى هذا المضمار - وهو لما يزل فى مراحله الأولى - تيسر له أن يخلق البيئة التى تلائمه فيعيش حيثما يشاء ، وان يمشى فى مناكب الارض ، وان يخمر البحار ويخلق فى الجو وان يضيق حدود هذا العالم الفسيح ، وان يسخر قوى الطبيعة ويستغل خيراتها فى أقصى الشرق وهو فى أقصى الغرب .

ولعل خير شاهد على ضعف تأثير البيئة من دون تعاون الانسان ونشاطه ما أورده الفيلسوف « وليم جيمس » من وصف « كرايزا نوفسكى » لجزيرتي سردينية وصقلية ، قال : « ان هاتين الشقيقتين ،

الواقعتين فى وسط البحر الأبيض المتوسط ، على بعد واحد من مقر الحضارتين اللاتينية القديمة والحديثة ، وعلى مقربة من مراكز حضارات الفينيقيين والاعريق والعرب فى اسبانية ، واللذين يزيد امتداد ساحلهما على ألف ميل ، وفيهما من مظاهر الخيرات ما يثير كوامن النفس ، ومن خفايا المرافق الزراعية والمعدنية ما يقصر عنه الوصف ، بقيتا - بالرغم من ذلك ، نسبياً منسياً ، لم يلتفت اليهما أحد مدة ثلاثين قرناً من تاريخ أوربة . . . أن لهاتين الجزيرتين السنة بلا لغة ، وأخبار معارك بلا تاريخ ، وتقاليد بلا شرائع ؛ وفيهما عادة الأخذ بالتأثر من غير مفهوم للعدالة ؛ لهما حاجات وفيهما ثروة وليس لهما تجارة ؛ فيهما أخشاب وموانئ وليس لهما سفن ؛ لهما أساطير بدون شعر ، وجمال بدون فن . ان هاتين الجزيرتين الواقعتين فى مراكز الحضارة الأوربية ، بحيث لا يسع أساطين الجغرافية الا الإشارة اليهما ، لأول وهلة ، كخير مكان لتحقيق التقدم المادي والفكرى والسياسي والتجاري ، قد ظلنا فى سبات عميق ، وكأنهما عقدتان على هامش التاريخ» (١٠)

لا لسبب الا لافتقارهما الى الانسان العامل .

ولعل القارىء لو أعاد النظر فيما أوردنا من آراء القائلين بنظرية البيئة فى ضوء الوضع الراهن للحضارة لرأى أن تلك الآراء لم تعد تستقيم مع الواقع ، بعد أن انعكست الآية فانتقل مركز الحضارة

(١٠) James. ، ص ١٨٥ .

من الشرق الاوسط ومن حوض البحر الأبيض المتوسط الى مناطق
أوربة الوسطى والشمالية والى القارة الأميركية ، وكانت فيما مضى
مواطن البربرية والهمجية ، ولم يكن المفكرون الأولون يرون فيها
ما يساعد على نشوء الحضارة • ولم يعد عسيرا الآن - فى ضوء
التقدم العلمى الذى تحقق للانسان ، وما يتوقع أن يتحقق له بعد أن
تتم السيطرة على الطاقة الذرية فيستخدمها فى انشاء العمران بدلا من
اتخاذها سلاحا للهدم والدمار - أن تتقلب مجاهل أفريقيا الى ميادين
جديدة للحضارة وتتحول الصحارى الحالية الى مراكز عامرة بالحياة
والمدينة •

ولعلنا نستطيع الآن ، أن نميز فى اتجاهات الفكر ، بخصوص
مقومات المجتمع ، ثلاث مذاهب : الأول هو مذهب المحافظين والعناصر
الرجعية التى تعتمد المثالية وتميل الى تأكيد عامل الوراثة وما ينجم
عنه من تمايز الأجناس ، باعتبار أنه العامل الأساسى الحاسم فى تقويم
المجتمع ، وهو الاتجاه الذى ناقشناه فى الفصل السابق ؛ والثانى هو
مذهب العناصر المعتدلة التى تميل الى « الطبيعية » المترددة بين المثالية
والمادية ، والتى تعتبر مؤثرات الطبيعة ، وبصورة خاصة عامل البيئة
والمؤثرات الجغرافية ، العامل الرئيسى الحاسم فى تقويم المجتمع ،
وهو المذهب الذى خصصنا لبحثه هذا الفصل • أما المذهب الثالث فهو
الذى ترجحه العلوم الاجتماعية التى تذهب الى القول بان عامل الثقافة

هو العامل الأساسي الحاسم فى تقويم المجتمع ، وهو كذلك بوجه عام ، مذهب جميع الاشتراكيين ، وخصوصاً الذين يأخذون بمذهب المادية التاريخية التى تعتبر الطبيعة والعوامل الجغرافية فى جملة الشروط الأساسية والثابتة فى تقويم الحياة الاجتماعية وفى تطورها ، وان لم تكن العامل الرئيسى الحاسم فى تعيين هيئة المجتمع ونظامه وتطوره .

والواقع ، ان البيئة الطبيعية والعوامل الجغرافية وان كانا من العوامل الفعالة فى قيام المجتمعات وفى تعجيل أو تأخير مجرى التطور فيها ، الا ان أثرها لا يمكن أن يعتبر حاسماً ، لأن تطور المجتمع يجري بصورة أسرع بكثير من تطور الوسط الجغرافى وتغيراته .

فلقد مرت أوربة مثلاً ، فى خلال الثلاثة آلاف سنة الأخيرة ، فى مراحل اجتماعية ثلاثة هي مرحلة النظام القائم على الرق ، ومرحلة نظام الاقطاع ، ومرحلة الرأسمالية ، وهي اليوم على أبواب المرحلة الرابعة - مرحلة الاشتراكية التى تحققت فعلاً فى الاتحاد السوفياتى - فى حين أن ظواهر الوسط الجغرافى فيها لم تتغير فى خلال هذه الفترة من الزمان ، وان صح أنه طرأ فيها بعض التغير فانه طفيف بحيث ان الجغرافيين يغفلون ذكره . ذلك لأن أى تغير ظاهر فى الوسط الجغرافى يقتضى له ملايين من السنين فى حين تكفى بضع مئات من السنين لحدوث تغيرات خطيرة فى نظام الحياة الاجتماعية . ولذلك لا يصح أن يعتبر الوسط الجغرافى عاملاً أساسياً وحاسماً فى تقويم

المجتمع وتطوره ، لأن العامل الذى لا يطرأ عليه التغير خلال عشرات الألوف من السنين لا يمكن أن يكون السبب الأساسي فى التغيرات التى تتعاقب خلال بضع مئات من السنين • ولا يمكن كذلك ، أن يفسر قيام المجتمعات ونشوء النظم وتطورها ، على أساس مسألة السكان ، بالرغم من أن وجود الناس هو من جملة العوامل الأساسية لقيام الحياة الاجتماعية لأنه لا يمكن أن تقوم حياة اجتماعية من دون وجود حد أدنى من الناس ، وبالرغم من أن نمو السكان يؤثر فى التطور الاجتماعى فيجعله عسيراً أو يسيراً وسريعاً أو بطيئاً ولكنه لا يمكن أن يعتبر العامل الأساسي الحاسم لأنه ليست هنالك أدلة تاريخية أو واقعية تثبت لنا أن تزايد النفوس مثلاً ، كان سبباً قائماً بذاته فى سيرة المجتمعات • ولو كان نمو السكان عاملاً أساسياً فى النظام الاجتماعى وفى تطوره ، لترتب على ذلك بالضرورة أن يرافق ازدياد كثافة السكان تغير فى هيئة المجتمع ونظامه • بينما يثبت لنا الواقع ، أن الصين وعدد نفوسها يبلغ أربعة أضعاف نفوس الولايات المتحدة بقيت مستقرة فى نظام نصف اقطاعى فى حين أن الولايات المتحدة بلغت فى فترة قصيرة ، المرحلة العليا للنظام الرأسمالى • وكثافة النفوس فى بلجيكة مثلاً ، تزيد على كثافة النفوس فى الولايات المتحدة بنسبة تسعة عشر ضعفاً ، وتزيد على كثافة النفوس فى الاتحاد السوفياتى بنسبة ستة وعشرين ضعفاً ، فى حين أن مجتمع الولايات المتحدة يقوم

فى مستوى أرقى من مستوى المجتمع البلجيكى ، وفى حين أن مجتمع
الاتحاد السوفياتى قد تجاوز المجتمع البلجيكى بمرحلة تاريخية كاملة •
ولهذا لا يصح أن يعتبر موضوع السكان - النفوس - ، العامل
الأساسى الحاسم فى تعيين هيئة المجتمع ونظامه وتطوره •
وهكذا ينتهى بنا البحث فى موضوع البيئة وأثرها فى تقويم
المجتمع الى انها من العوامل المؤثرة ، من دون ريب ، ولكنها ليست
العامل الرئيس الحاسم • وان أثرها يتناقص كلما تقدم المجتمع وأخذ
بأسباب الحضارة •